

أثر اللغة العربية في شعر المتنبي "دراسة انتقائية وصفية تحليلية"

د. محمد محمد عيسى فيض - رئيس قسم الخدمات الفنية والتقنية - كلية السياحة والضيافة

مصراته

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
ويعد :

اللغة في العصر العباسي تعيّرت وأصبحت لا تصف الظاهر بذاته، وإنما تكشف عن معناه أو تأويله في النفس، وعلى الرغم من أن اللغويين وقفوا في وجه تيارات التجديد اللغوية، إلا أن هناك بعض الشعراء الذين فطنوا إلى أشياء جديدة، تبعاً لثقافة عصرهم، وتطور اللغة ظاهرة حضارية على العصور، تلون بلون البيئة التي ولدت فيها.

إلا أن المتنبي قد احتفظت لغته بأسلوب، وعبارات فصيحة، ولم تتأثر كثيراً باللغة الجديدة، وظّفها توظيفاً فنياً، حقق من خلالها قيمة جمالية متفاعلة مع رؤيته وشكلت كل كلمة فيها معنى وصورة، واستطاع توظيف الكلمة فنياً، وسأحاول هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً بذلك أن ألقى ضوءاً، مهما كان يسيراً على لغة المتنبي.

وقد حاولت أن أجعل هذا البحث خلاصة لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر اللغة العربية في شعر المتنبي، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في مجموعة مباحث إضافية إلى مقدمة وخاتمة وفهرس للمراجع مستخدماً المنهج الوصفي والمنهج التحليلي، يتناول هذا البحث أثر اللغة التي أكثر المتنبي فيها من ذكر المعاني والألغاز المرتبطة بالذات العربية وسجاياها النفسية والاجتماعية كالسيادة والسخاء والشجاعة والكرم، والإقدام والبطولة والمروءة. ولعل أهم ما يلفت النظر في أشعاره العربية أنها تجسيد حي للبطولة العربية الحقبة يخوضها سيف الدولة باسم كل العرب في نفس ملحمي رائع تجلت فيه عبقرية هذا الشاعر في رسم لوحات فنية هي غاية في الروعة والإتقان .

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين وأن يوقفنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح،
فإنه نعم المولى ونعم النصير .

الباحث

تمهيد: المتنبي الشاعر الإنسان:

إن أبا الطيب يعد شاعر كل بلد عربي طاف به، وقد عبر أصدق تعبير عن تأزم القضايا العربية في عصره، السياسية منها والاجتماعية، فلقد كان المتنبي سمفونية صاحبة هزات أجواء العرب الميته آنذاك، فأحدثت فيها تموجات عنيفة، ثم أصبح صدى قوياً لهذه التموجات الهادرة في العراق وسورية ومصر وفي بلاد فارس أو غيرها، فقد ترك في كل بيئة حل بما أثره الخالد .

" وقد عاش المتنبي رافعاً رأسه، متعالياً، متعاضماً، شجاعاً غير هيباب يبحث عن المجد ويعاند الشعراء ، ويصاحب الملوك، ويقود الثورات، ويخرج من معركة ليدخل في أخرى، ومعاركه متنوعة، وتنقلاته بحثاً عن الثروة والمجد والجاه كثيرة جدا ، وقد تغرب وأمعن في الاغتراب بعيداً عن وطنه ومحل مولده (الكوفة) ورأى أن الساحة العربية هي وطنه الكبير "(1) .

ولم يصبح العرب أكثر مشاركة في فهم الإنسان وحركة الحياة واستشراف الكون إلا بيزوغ فجر الإسلام ونزول القرآن الكريم، والتوجيهات الروحية للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقد استلهم الشعراء العرب هذا المعنى أمثال أبي تمام وأبي الطيب وأبي العلاء الذين أعطوا الإبداع العربي بعده الحضاري والإنساني، إلا أن أبا الطيب كان الأقوى والأشد ضجيجاً من كل هؤلاء، لأن لديه وضوحاً في الرؤية السياسية ، ووضوحاً في الأهداف والغايات التي ينشدها من أجل أمته التي استباح حرمتها الأعاجم.

ولقد كان المتنبي داعية للعرب ظهر في عصره ، فبدأ كأنه يسبح ضد التيار فيجرفه إلى أماكن أخرى غير الذي يريد، لذا جاءت أشعاره مصبوغة بألم المرارة التي بلغت ذروتها كآبة وتشاؤماً، فدفعته إلى غربة مريرة داخل الذات تثقله بأحاسيس أكثر مرارة.

ومن هذه النقطة المهمة بدأنا نتفهم إحساسه بالغربة في أمة عربية، لأنها أمة هانت عليها كرامتها في نظرة وأسلمت زمام أمرها للأعاجم أما هو فلا يزال ينبض بالوجدان العربي والنخوة العربية الأصيلة، فكان لحناً يعزف أناشيده العربية الخالدة، ونفساً شفافة تحترق في خضم البحث عن الذات والهوية الوطنية من أجل الآمال والألام العربية التي تجمع كل العرب في دولة واحدة .

والشاعر " عندما يزيح الستار عن تراكمات الماضي، وذكريات الأمس ، فإنه لا يصور أحداثاً مضت، أو يستعيدها لذاقتها، بل يزيح الغبار عن عالمه النفسي، فالشاعر يبعث التاريخ ويبعث الراقيدين من قبورهم لي شخص الماضي عبرة للحاضر ويتخذها زاداً للمستقبل(2) .

(1) السيد محمد الديب ، شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني القاهرة ، 1984م، ص148.

(2) جمال أبو نجم، شعر ابن الأبار الأندلسي دراسة نقدية، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية ، 1996، ص29.

المبحث الأول: لغة المتنبي في الاستعداد للموجعات والضعفوط:

هذا هو حال المتنبي الذي كان يعيش حالة تحفز دائم، وهو كمن يقبض على جمر، يحاول أن يعيد ترتيب أوراقه من جديد ، وتنظيم حساباته ولكن على طريقته الخاصة، أو استراحته هي استراحة المحارب من أجل معركة قادمة، بل من أجل مستقبل قادم يحمل في ثناياه تباشير تحقيق الأمل المنشود يقول⁽¹⁾:
[من المنسرح]

فَلَا مُبَالَ وَلَا مُدَاجٍ وَلَا .: وَإِنْ وَلَا عَاجِزٌ وَلَا تُكَلِّهَ⁽²⁾

ويقول⁽³⁾ : [من الوافر]

فَرِيئَمًا شَقِيئُ غَلِيلِ صَدْرِي .: بِسَيْرِ أَوْفَنَاءٍ أَوْ حُسَامِ
فَإِنْ أَمْرُضُ فَمَا مَرِضَ اضْطِبَارِي .: وَإِنْ أَحْمَمُ فَمَا حَمَّ اعْتِزَامِي⁽⁴⁾

وفي كل موقف من مواقف الانكسار النفسي والسقوط يستنجد الشاعر بما تبقى لديه من عزيمته وإرادة لا تلين " وتنتحي شاعريته في كل موقف عصيب لتتخطى عن الذات، في ضجيج تصاعدي يتجاوز حدود الغاية، ليلتقي على مشارف المستحيل ، بالحلم الكبير ، ويلقي على مسامع الزمن نشيد الأناشيد! أن لا حدود للطامحين الأباة، وإن هذا العالم الهرم غير صالح إلا لحوافر خيولهم⁽⁵⁾ .
وكما يقول أدونيس " شعر المتنبي يتجه صاعداً في آفاق العظمة ، دون أن يبلغ عظمة أخيرة يرتاح إليها ، ويقف عندها ، هكذا تبقى الحياة بالنسبة إليه شروعا دائماً"⁽⁶⁾، نحو الهدف والغاية التي يسعى إليها فلا تكل نفسه حتى ينشدها .

وقد عايش المتنبي الهزائم النفسية العربية بكل أبعادها " فتولدت في نفسه مشاعر القلق والوحدة والضيق والإحساس بالألم الحاد، ولكنه حاول أن يتحرك من خلالها محاولاً استبدال الواقع مما جعل الإحساس

⁽¹⁾ المتنبي ، ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمن الرقوقي ، ط دار الكتاب العربي، بيروت ، 1986م، ج3، ص385.

⁽²⁾ مبال : خبر عن مخدوف ، أي فلا أنا مبال؛ والمداجي: الذي يسائر العداوة. والواني : المقصر؛ وتكة: معنى وكلة، وهو الذي يكمل أمره إلى غيره. ينفي عن نفسه هذه الصفات ، يقول : فلا أنا مبال بأعدائي ولا مداج لهم، ولا أنا مقصر في أمري، وفيما يجب علي مراعاته وحفظه، ولا عاجز عن مكافأة المسيء ، ولا ضعيف أكل أمري إلى غيري.

⁽³⁾ المصدر نفسه ، ج4، ص278-279.

⁽⁴⁾ أحمم: من الحمى يقول: إن كنت قد مرضت في بدني فإن صبري وعزمي باقيا على ما كانا عليه لم يمرضاً بمرض جسمي.

⁽⁵⁾ خليل شرف الدين ، المتنبي ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م ، ص70.

⁽⁶⁾ أدونيس ، ديوان الشعر العربي ، الكتاب الثاني ، دار العودة ، بيروت، 1971م، ص20.

بالألم من أهم المصادر الوجدانية التي انطلق منها الشاعر، وحاول أن يصيغ شعوره حول هذا المعنى (1)»

ومن هنا يرى الباحث أن المتنبي قد شغل نفسه بقضية العرب كثيراً، وأمضى جل عمره في البحث عن الذات العربية فتفاعل معها بكل أحاسيسه ووجدانه، فكان قضية العرب التي تسير على الأرض وتنتقل من وطن إلى وطن لتعلن وحدة هذه الأوطان مجتمعة.

المبحث الثاني : لغة المتنبي مع الذات العربية وصورة العدو :

وإذا ما ناقشنا لغة المتنبي مع الذات العربية وصورة العدو نقول: قد أكثر المتنبي من ذكر المعاني والألفاظ المرتبطة بالذات العربية وسجاياها النفسية والاجتماعية كالسيادة والسخاء والشجاعة والكرم، والإقدام والبطولة والمروءة، ولعل أهم ما يلفت النظر في أشعاره العربية أنها تجسيد حي للبطولة العربية الحقبة يخوضها سيف الدولة باسم كل العرب في نفس ملحني رائع تجلت فيه عبقرية هذا الشاعر في رسم لوحات فنية هي غاية في الروعة والإتقان لا يدانيه في رسمها شاعر من شعراء عصره .

فرى سيف الدولة بطلاً عربياً يملك من عناصر القوة العربية الكبيرة ، فلا يبالي بالموت الداهم، ولا يتوانى في أن يقف باسمها في جفن الردى وهو نائم " وقد أبدع المتنبي أما إبداع في رسم صورة جيش الروم الفار المهزوم من ساحة المعركة بعد أن هرب قاداته وفر جنوده أو قتلوا ، ويبدو أن المتنبي قد اقتفى خطى الأقدمين في التعظيم من شأن الخصم حتى يبرز عظمة الانتصار فبدأت عدسته تلتقط مشاهد الجيش الجرار ، يصف الحرب العوان ،

وما يجري فيها من نزال ومبارزة تلاحم للأبطال بالسلاح الأبيض يقول (2) : [من الطويل]

تَوَكُّعٌ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ	:. سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا هُنَّ قَوَائِمٌ ⁽³⁾
إِذَا بَرَقُوا لَمْ تُعْرِفِ الْبَيْضُ مِنْهُمْ	:. ثِيَابُهُمْ مِنْ مِثْلِهَا وَالْعَمَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ رَحْفُهُ	:. وَفِي أُذُنِ الْجَوْرَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ
تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَانٍ وَأُمَّةٍ	:. فَمَا تُفْهَمُ الْحَدَاثُ إِلَّا التَّرَاجِمُ

ولا يملك سيف الدولة البطل العربي في مواجهة هذا الحشد الهائل إلا أن يتحلى بالشجاعة والصبر، ويحمل روح التحدي والمواجهة ، وكأنه على موعد سابق مع هذه الجحافل الغازية، وهنا تظهر حقيقة معادن الرجال في هذه

(1) د. جمال أبو نجم ، شعر ابن الأبار الأندلسي ، ص38.

(2) المتنبي ، الديوان ، ج 4 ، ص 99-100.

(3) السرى: سير الليل؛ والجياد: الخيل. يقول: أتو مدججين في السلاح، ولكترة الحديد عليهم وعلى خيولهم كانت خيولهم كأنها لا قوائم لها: أي لا ترى ، لأنها محجبة بالتجايف على الخيول.

شروط الملحمة لكان المتنبي هو ميروس العرب بلا منازع وسيف الدولة أخيلهم ، بل أصفى بطولة وأروع مواقف وأخلاقية⁽¹⁾.

وإذا ناقشنا قضية قصائده ولغته فيها نرى أن قصائده قد أمتازت بالفخامة والقوة، سخابة هادرة؛ لأنها تعكس ما يجيش في النفس من الثورة والعنفوان العربي، ولعل كوامن ذاته العربية التي تفيض حباً للعرب والعروبة وبدويته وافتتانه بالبداوة كانت سبباً قوياً يقف وراء هذا النفس الشعري القوي ، ووراء هذه الظواهر التي كانت ظاهرة في أشعاره العربية.

المبحث الثالث: لغة المتنبي بن الأُم والطموح :

وقد قدم المتنبي في شعره العربي نماذج من الأُم والطموح إلى واقع أفضل، لقد كان المتنبي سهماً في فضاء العرب، يرى بعينه ملك العرب يتهاوى تحت سنابك خيل الغزاة الأجانب، فيشعر بالضياع والغربة ، ويحلم بملك عربي يعيد أمجاد العرب الزاهية، وقد خيل إليه لفترة من الزمن أن سيف الدولة في إمارته شمال سورية هو ذلك البطل المأمول ، ووجد فيه المتنبي النموذج الكامل بطولية وعروبة، فوقف شعره عليه زهاء تسع سنوات، يتغنى بأجماده وانتصاراته على الروم، وقد شاركه في معظم معاركه⁽²⁾.

ويمكننا أن نلاحظ شيوع النبرة الحماسية المجلجلة التي تصل إلى دورتها في أحيان كثيرة، والتي طبعت نتاج الشاعر من الأشعار العربية، وقد عدّه المازني شاعر القوة، كما أجرى العقاد موازنة بينه وبين فيلسوف القوة الألماني نيتشه.

لذا كان المتنبي " لا يرى خيراً إلا في الرجل الذي يملأ الدنيا ويترك فيها دويماً هائلاً، الرجل السامي الذي لا أحد فوقه ولا أحد قبله ، الرجل الذي تتوقف نفسه إلى بلوغه، فجعل ممدوحه صورة لهذا الرجل الخيالي"⁽³⁾.

ومن هنا يرى الباحث أن المتنبي يتفوق علي شعراء عصره في عمق الصورة ودقة الخيال ، ويرجع ذلك إلى سعة خياله ، وتفاعل نفسه مع الحياة وأحداثها أو وصفه للمعارك التي شارك فيها وأبلى فيها بلاء حسناً ويعرف الناقد الخيال بأنه " القوة التي تتصرف في المعاني لتنتزع منها صوراً بديعة وهذه القوة إنما

(1) خليل شرف الدين المتنبي ، ص162.

(2) محمد عزام ، قضية الالتزام في الشعر العربي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق، 1989م، ص331.

(3) د. محمد حمود، أبو الطيب المتنبي ، ط دار الفكر اللبناني ، بيروت، 1993، ص93.

تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها عن طريق الحس أو الوجدان، وليس في إمكانها أن تبدع شيئاً من عناصر لم يتقدم للتخيل معرفتها⁽¹⁾.
وقد أحب الشاعر سجايا العرب وأخلاقهم، فجاءت أشعاره في وصف هذه المآثر رائعة فياضة بالعاطفة الجياشة، وكانت أوصافه تتحدث بلغة العاشقين والمحبين، عندما يكون الحديث عن سيف الدولة لأن الشاعر المتنبي اصطفى من ممدوحيه سيف الدولة، كما اصطفى من ألفاظه لسيف الدولة ما يجسد هذا الحب ويعبر عن هذا الإخلاص.

المبحث الرابع : لغة المتنبي في السجايا الخلقية :

وإذا تفحصنا ديوان المتنبي فإننا نجده يكثر من الألفاظ التي تتصل بالسجايا الخلقية للإنسان العربي، مثل : الجود والكرم ... الخ، ونجده يستعمل لهذه القيم صيغاً مختلفة ومتنوعة يقول⁽²⁾ : [من البسيط]

وما تُنَاكَ كَلَامَ النَّاسِ عَنِّ كَرِيمٍ . . .
ومن يُسُدُّ طَرِيقَ الْعَارِضِ الْمَهْطِلِ

ويقول في عرض موقف سيف الدولة من ملوك الروم⁽³⁾ : [من الطويل]

فَإِنْ تُعْطِهِ مِنْكَ بَعْضَ الْأَمَانِ فَسَائِلٌ . . .
وَإِنْ تُعْطِهِ حَدَّ الْحُسَامِ فَأَخْلِقُ⁽⁴⁾

ويبدو حرص الشاعر على ألفاظ العزة والمجد واضحاً في أشعاره فقد رأينا أن أكثر الألفاظ تكراراً في معجم الشاعر لفظة السيف " فقد تكررت أربعاً وسبعين مرة، واستعمل إلى جانبه خمسة وعشرين لفظاً تدل على السيف أو أجزائه، ويبلغ مجموعها مضافاً إليها لفظ السيف مائتي مرة، وهذا يمثل نسبة كبيرة لا تصل إليها مجموعة لفظية أخرى تشترك في الدلالة على شيء واحد⁽⁵⁾.

وقد جاءت ألفاظ أخرى تشير إلى المعنى ذاته كالمهند والنصل والغمد، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أهمية السيف في نظر الشاعر، فهو رمز للقوة العربية والبطولة العربية، وسيف الدولة في نظره بطل حقيقي يقف في وجه القوة الغاشمة لأعداء العروبة والإسلام يقول⁽⁶⁾ : [من الطويل]

(1) محمد الحضرمي حسين، الخيال في الشعر العربي، تحقيق علي رضا التونسي 1972، ص2، 1972م، ص13.

(2) المتنبي، ديوان المتنبي، ج 3، ص211.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص57.

(4) أخلق صفة تعجب من قولهم فلان خليق بهذا أي جدير به. يقول : فإن أعطيته ما يطلب من الأمان فهو سائل يسألك؛ وأنت لا تخيب سائل، وإن قتلته فهو جدير بذلك لأنه حربي مباح الدم.

(5) فاطمة السويدي، سيفيات المتنبي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة القاهرة، 1985، ص3.

(6) المتنبي، ديوان المتنبي، ج1، ص400.

فَأَنْتَ حُسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ .: وَأَنْتَ لَوَاءُ الْمَدِينِ وَاللَّهُ عَاقِدٌ⁽¹⁾

المبحث الخامس : لغة المتنبي في معاني القوة والفروسية :

وقد رأينا في أثناء أشعاره ألفاظاً كثيرة تشير إلى معاني القوة والفروسية مثل الرمح أو أجزائه مثل : القنا والأسل والسنان ، ومن الطبيعي أن يكون لكل هذه الألفاظ دلالتها النفسية عند الشاعر علاوة على دلالتها الحسية المادية، إذا ما تذكرنا أنه فارس مغوار يجيد الطعن والنزال ، وليس العبرة بالسلاح وإنما بمن يحمل السلاح يقول⁽²⁾: [من البسيط]

إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعَ النَّاسِ تَحْمِلُهُ .: وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ الْمُخَلَّبِ السَّيِّئِ⁽³⁾

ولكن على الرغم من ذلك يبقى للسيف وسط حشد الألفاظ التي تشير إلى السلاح وأنواعه يبقى له مكانته المتفردة التي لاتدانيها مكانة، فهو السبيل إلى المجد حين يحتدم النزال .

أما الألفاظ التي تدل على الخيل العربية فإنها تحتل مكانة الصدارة عند الشاعر، وإلى جانب ذلك تتكرر مجموعة من الألفاظ التي تدل على صفات الخيل يقول⁽⁴⁾ : [من الطويل]

لَهُ عَسْكَرًا حَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى .: بَهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ

ويقول⁽⁵⁾ : [من الطويل]

وَخَيْلٍ حَشُونَاهَا الْأَسِنَّةُ بَعْدَمَا .: تَكَلَّدَسْنَ مِنْ هُنَّا عَلَيْنَا وَمِنْ هُنَّا

ويشير إلى الصلة الوثيقة والوشيجة القوية بين الخيل وفارسها ، واقتراحها بفكرة القوة والاقترحام يقول⁽⁶⁾ :

[من الطويل]

فَزَارَ الَّتِي زَارَتْ بِكَ الْخَيْلُ قَبْرَهَا .: وَجَشَّمَهُ الشُّوقُ الَّذِي تَتَجَشَّمُ⁽⁷⁾

(1) أنت للمالك بمنزلة السيف؛ ولكن الضارب بك هو الله، وأنت للدين راية الله سبحانه الذي عقدها وأحكمها.

(2) المصدر نفسه ، ج2، ص343.

(3) كل: مبتدأ؛ والسبع : خبر؛ والجملة خبر ليس؛ واسمها ضمير الشأن؛ والمخلب : للطير والسباع: بمنزلة الظفر للإنسان . وهذا مثل ضربه ، يقول: ليس كل من يحمل السلاح شجاعاً، كما أنه ليس كل ذي المخلب أسداً يفترس .

(4) المصدر نفسه ، ج4، ص54.

(5) المصدر نفسه ، ج4 ، ص300.

(6) المصدر نفسه ، ج4، ص74.

(7) جشمه الشيء : كلفه إياه فتحشمه، والذي: مفعول ثان كجشمه يقول : إن السحاب زار قبر والدتك معك وكلفه الشوق ما كلفك من ا لمسير نحوها: أي هو يشنق قبرها كما تشنقه.

وقد ذكر بعض الشعراء الخيل في أشعارهم ، ولكنهم لم يتفننوا في وصف حركتها ومنازلتها العدو في أرض القتال كما فعل المتنبي يقول⁽¹⁾ : [من البسيط]

قَادَ الْمَقَانِبَ أَقْصَى شُرْهَمًا نَهَلًا .: عَلَى الشَّكِيمِ وَأَذَى سَيْرَهَا سِرْعًا

ويشيد الشاعر بخفة حركتها وسرعتها يقول⁽²⁾ : [من المتقارب]

رَمَى الدَّرَبَ بِالْجَرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعَدَا .: وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السِّهَامَ خِيُولًا⁽³⁾

شَوَامِلَ تَشْوَالِ الْعَقَارِبِ بِالْقَنَا .: لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَهِيلٌ

وَخَيْلٌ يَرَاهَا الرُّكُضُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ .: إِذَا عَرَسَتْ فِيهَا فَلَيْسَ تَقْبِلُ

فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مَغِيرَةً .: قِيَاحًا وَأَمَّا خَلْفُهَا فَجَمِيلٌ

والخيل عند الشاعر تقتحم المعارك غير هيابة ولا وجلة، ولا يعيقها عائق ولكأنها تستبدل قدراتها وحركاتها حسب الظروف يقول⁽⁴⁾ : [من الطويل]

فَهِنَّ مَعَ السَّيْدَانِ فِي الْبَرِّ عَسَلٌ .: وَهِنَّ مَعَ التَّيْنَانِ فِي الْمَاءِ عَوْمٌ⁽⁵⁾

وَهِنَّ مَعَ الْغَزَلَانِ فِي الْوَادِ كُمُنٌ .: وَهِنَّ مَعَ الْعُقْبَانِ فِي التَّبِقِ حَوْمٌ

والواضح أن " أكثر صور الحيوان ارتباطاً بذهن المتنبي صورة الخيل، فهي تستثير إعجابه أو هو يحبها حقاً وهو يتحدث عن الخيل أكثر مما يتحدث عن الفرسان، وكأنما هي التي تمثل القوة التي يعتز بها أو القوة التي تتيح للمرء أن ينتصر في صراعه مع الأعداء"⁽⁶⁾.

وهكذا ترتبط استعمالات الشاعر بلفظة الخيل؛ لما لها من أهمية بالغة في حياة الإنسان العربي مسلماً وحرياً ، وتكرماً لها انطلاقاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "الخيل معقود في نواصيها الخير"⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه ، ج2، ص333.

(2) المصدر نفسه ، ج3، ص221 ، 222.

(3) الدرب: المدخل إلى بلاد الروم . والجرد: الخيل القصيرة شعر الجلد، وهو أية كرمها ، يقول : رمى الروم بخيل أسرع إليهم من السهام ولم يعلموا قبل ذلك أن السهام تكون خيلاً .

(4) المصدر نفسه ، ج4، ص72.

(5) السيدان: جمع سيد، وهو الذئب ، وعسل : جمل عاسل - من عسلان الذئب، وهو الإسراع والاضطراب في الجري - والتينان : جمع تون، وهو الحوت، يقول : إن خيله لكثرة غزواته عمت البر والبحر، فهي تعدو مع الذئب في البر وتعود مع حيتان البحر، حين تقصد أعاليه.

(6) فاطمة السويدي ، سيفيات المتنبي ، ص231.

(7) البخاري ، صحيح ، كتاب الجهاد والسير ، رقم الحديث : 2850.

وفي وصف للأبطال البواسل ، والمعارك الضاربة تظهر براعته وأفانيه في التقاط أدق الخصائص وأدق التفاصيل وسط هذا الحشد الهائل من الرجال والسلاح، وهو يحرص على انتقاء هذه الجزئيات وهذه المشاهد لتشكّل في خاتمة النص الصورة كاملة للبطل العربي وجيشه وخيله.

ومما ساعد الشاعر في ذلك أنه كان يشارك الجنود في المعارك والحروب كما عشق مرابض الفروسية في صباه، لذا جاءت معانيه فخمة ودقيقة ورائعة، اعتمدت فيها على خياله المتدفق وعاطفته الصادقة ، وكثيراً ما يلجأ إلى الحكمة يطعم بها شعره العربي الحماسي .

" ومهما يكن من شيء فقد كثرت الحكمة في شعر المتنبي كثرة لم تعهد عند شاعر قبله حتى عدها صاحب مذهباً لم يسبق إليه، وكان منها ما هو أثر لثقافته الفلسفية ومنها ما كان أثراً لحياته وتجاربه ، ونظراته في المجتمع وما يجري فيه من أحداث"⁽¹⁾.

" والشاعر متعصب للعروبة ، محب لسيف الدولة ، لذا جاءت الألفاظ قوية، وغير متكلفة ، وجاءت خالية من كل صفة ممجوجة، والعاطفة فيها قوية صادقة وعميقة والخيال وثاب والموسيقا ملائمة ومعبرة"⁽²⁾.

المبحث السادس : لغة المتنبي في الحرب :

ومن الواضح أن معظم شعر المتنبي قد أتجه إلى حروب سيف الدولة مع أعدائه الروم، وانتصاراته العظيمة عليهم، وقد أبدى فيهم التشفي والشماتة والسخرية والازدراء للهزائم المنكرة ، كما أن له قصائد أخرى في حروب سيف الدولة مع القبائل العربية المجاورة كقيس، وبني كعب، وبني كلاب، وعيلان، وربيعة، وبني نمير، واتضح من خلالها تعاطفه وإشفاؤه على هذه القبائل، معتبراً أن ذلك يقلل من الرصيد العربي المدخر للحظة المواجهة ، ويضعف من مكامن القوة العربية في مواجهة العدو ، لذا اتسمت قصائده بطابع خاص بدت فيه المودة واللين والترفق والوداعة يقول⁽³⁾ : [من الوافر]

تَرْفُقُ أَهْلُهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ .: فَإِنَّ الرَّفُقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ⁽⁴⁾

(1) درويش الجندي، الشعر في ظل سيف الدولة ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، 1959م، ص294.

(2) محمد السيد ديب، شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني، ص113.

(3) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ج 1 ، ص209.

(4) يقول ك أرفق بهم وإن جنوا فإن من رفق بمن جنى عليه كان ذلك الرفق عتاباً لأن الصفح عن الجاني يجعله عبداً لك، وما قتل الأحرار كالعفو عنهم.

وإذا ناقشنا لغة المتنبي في الحرب نقول: قد تفوق أبو الطيب تفوقاً كبيراً على معارضيه من الشعراء في وصف الحرب ضد أعداء العرب والعروبة، وذلك لأسباب توافرت له دون غيره ، فقد كان فارساً مغواراً يتمتع بقدر كبير من الذكاء والشجاعة والعروبة المتوقدة في ذاته، لذا يعد شعره وثيقة تاريخية وسياسية مهمة تغنت بانتصارات العرب على أعدائهم الروم ، كما كانت حماسته للعرب والعروبة حماسة أصلية مطبوعة مما جعله يسدل ستاراً من النسيان على كثير من شعراء زمانه ، فكان محل إعجاب كبير من العرب الشرفاء المخلصين لعروبتهم في عصره وفي عصور لاحقة لمعانيه وأسلوبه وديباجة لغته . وهكذا "المتنبي هو المتنبي وكفى، شاعر العربية والعروبة، فارس الكلمة، قائد الحكمة، صاحب اللواء، الذي حشد ذاته فناً عربياً ثائراً ، جمع بين عمق الفكرة وصفاء الصورة، وقدر أن يبلغ بالصياغة العربية أقصى غاياتها، فأقام عرساً للأصالة العربية، والذوق الفني في لوحاته الشعرية، هو شاعر وضع أنامله على الأوتار الحقيقية لطاقت اللغة العربية ، فأنبعثت الألحان فيها فكراً، وفناً ومنتعة وخلوداً"⁽¹⁾ . وقد أصبح اسم المتنبي مرادفاً للشاعر العظيم، وقد أثر على الشعر العربي تأثيراً كبيراً لا مثيل له، وأصبح ديوان المتنبي طوال العصور الوسطى والعصر الحاضر في متناول الدارسين من فارس إلى الأندلس⁽²⁾ .

المبحث السابع : لغة المتنبي في كافور :

وأما مدائحه في كافور (والي مصر) فقد دفعه إليها الهوس بتحقيق أحلام العروبة المتوقدة في نفسه، والتي كان الشاعر متهاكاً في تحقيقها مهما كان الثمن، لذا تزلف على غير عادته فأنشده وافقاً بين يديه، وهو لم يفعلها مع سيف الدولة، ولئن كانت أشعاره في كافور تتشع بوشاح الألم والمرارة لأنه بارح معقل العروبة في حلب، واتجه مرغماً مصانعاً يحمل هم وحلمه الكبير غير عابئ بنتائج رحلته الفاشلة في لحظة اختيار نفسي رهيب، وانكسار ذاتي، فدفع الشاعر ثمنها غالياً ، وكانت بمثابة السقطة الكبرى التي فجرت أغوار نفسه في نشيج حزين وأنين خافت في حنايا ذاته الثائرة .

وتأبى نفسه المتعالية المتكبرة المزعزعة أن تستتر عن غرضها فتراها مشدودة إلى الأمل المفقود يقول⁽³⁾ :

[من الطويل]

(1) منير سلطان ، البديع في شعر المتنبي ، ط منشأة المعارف، الإسكندرية ، 1996، ص 17.

(2) محمد ثابت الفندي وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية (مُترجم) ص 326، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1997، ص 326.

(3) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ج 4، ص 427.

وغير كثير أن يزورك راجلًا .: فَيَرْجِعْ مَلَكًا لِلْعَرَايِينِ وَالْيَا⁽¹⁾

وينفت أبو الطيب ازدراءه وسخريته من كافور لأسباب يخفيها عن ذاته وعن الآخرين، ولكنها كامنة في الشعور وفي اللاشعور لديه يقول⁽²⁾ : [من الطويل]

فَضَى اللَّهُ يَكافُورُ أَنْكَ أَوْلُ .: وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يَرَى لَكَ ثَانٍ⁽³⁾

فَمَالِكَ تُحْتَارُ الْقَسِيَّ وَإِنَّمَا .: عَنِ السَّعْدِ يَزْمِي دُونَكَ الثَّقَلَانِ

وَمَالِكَ تُعْنَى بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا .: وَجَدُّكَ طَعَانٌ بِغَيْرِ سِنَانٍ⁽⁴⁾

وَلَمْ تَحْمِلْ السِّيفَ الطَّوِيلَ نَجَادُهُ .: وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنْهُ بِالْحَدَثَانِ

ولم يف كافور بوعده الذي قطعه على نفسه للمتنبّي ، وهنا ينتفض الشاعر لكرامته الجريئة، وتكشف كافورياته عن نفسه العربية الأبية التي طلبت الولاية لا من أجل المجد الشخصي بل ليجعل منها نواة لتأسيس الدولة العربية المنشودة، وليضع حداً للاختيار الحضاري الذي كابدته الأمة العربية مما توافر له من إمكانات متواضعة.

ومن هنا يرى الباحث أن المتنبّي قد شهد مصرع العروبة على أيد الحكام فامتألت نفسه بالسخط، وتمنى أن تجتمع كلمة العرب، وأن يعود إليهم مجدهم الغابر وملكهم الضائع.

ونخلص من هذا القول بأن المتنبّي كان رائد شعر العروبة، وهو أمير شعرائها في عصره بلا منازع ، ولا نبالغ إذا قلنا في العصور اللاحقة، وهو أبرز من تغنى بالقيم العربية التي نادى بها وعاشها بوجوده وأحاسيسه ، بأقواله وأفعاله.

وهو يركب المستحيل من أجل العروبة في حلم دائم، ومعاناة مريرة يصوغها كلها في نشد بطولي رائع، وقد ترك للأجيال القادمة غاية الغايات " ضجيج الذات العربية وكبرياء الرجال في سمفونية دهرية هي

(1) غير كثير : خير مقدم عن المصدر المتاول بعده؛ والراجل : المشي على رجله والمملك بسكون اللام تحفيف ملك بكسرهما ، والعرايان: الكوفة والبصرة ، وقيل المراد عراق العرب وعراق العجم.

(2) المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 377، 378.

(3) قال الواحدي : هذا من أجود ما مدح به ملك، يقول : قضى الله أنك أول في المكارم والمعالي ولم يسبقك أحد إلى ما سبقت إليه ولم يقض أن يلحقك أحد أو يكون لك مثل فيكون ثانيك.

(4) عني بالشيء - بصيغة المجهول - اهتم به ، والأسنة : جمع سنان؛ والقنا : الرماح والجد : الحظ. والبيت في معنى البيت الأول ، يقول : لم تعني بإدخال الأسنة والرماح وحظك يطعن أعداءك فيقتلهم بغير سنان.

نشيد الأناشيد يرتلها من بعده التاريخ، حتى تتحفز الأمة لتنشئ حضارتها وتبني مجدها" (1)، فاستطاع بذلك أن يلج إلى ضمير الأمة ويهزه هزا عنيفاً . وهذا ما أرادته المتنبي وسعى من أجله جاهداً حين خاطب نفسه وخاطب أمته العربية طالباً منها أن تترك دويماً هائلاً تستعيد به أمجادها التليدة ، تتجوهر فيه إنسانيتها وحضارتها ، وقدرتها على العطاء والبقاء .

المبحث الثامن : لغة الدوافع الشخصية للمتنبي :

وإذا ما ناقشنا لغة الدوافع الشخصية لدى المتنبي نقول: في شعر أبي الطيب العروبي لا نكاد نتبين الدوافع الشخصية لديه، ولا النزاعات الخاصة عنده التي جعلته ينطق بها، بل نجد أنفسنا مندمجين مع تطلعاته السياسية، ملتحمين مع أغوار تلك النفس الأبية الوثابة، منطلقين معها إلى آفاق قيم الشاعر ورؤاه، وحقائق الوجود المنكشفة تحت مجهر ثورته العربية وتجربته وشاعريته. وعندما يموت الأشخاص، تبقى الكلمة الشعرية الخلاقة والهدف والغاية التي نادى بها، وكان أحد رسلها الكبار، والتي مازالت الأرض العربية من المحيط إلى الخليج تتغنى بها للحن . وتدخلنا أشعار الشاعر العروبية إلى دائرة الضوء، فلا نستطيع التخلص منها، ورحنا نغني معه أنشودة العروبة، ومجد الأمة العربية .

ومن هنا يكون التغيير ، ومن هنا تكون الثورة في مواجهة المحاولات الهدافة ، إلى تقزيم الإنسان العربي، وتهميش دوره الحضاري والإنساني في الوجود، "لذا انصب كل ما لديه من همة وعروبة، وشاعرية على ذلك الواقع المؤلم ، وذلك الجور الكئيب المثير فانتزع من سويدائه صوره ومعانيه، وصبها كلها في قالب حكمي فلسفي تارة، وتمكمي جاد وصريح فارتفع بها من مناسباتها الضيقة ، إلى مجالها الإنساني والاجتماعي الأوسع" (2).

وقد حقق المتنبي جل ما يصبو إليه من الأهداف الفردية المال والشهرة والمجد والريادة في عالم الشعر والشعراء ، وتملكه شعور قوي بأن يحقق غايته أو رسالته وبقي هدفه الأسمى الذي طال انتظاره، دولته

(1) خليل شرف الدين ، المتنبي ، ص6.

(2) المرجع نفسه ، ص197.

العربية الفاضلة لم ير النور ، ولكنه مات قبل أن تولد ، وظل هذا الأمل حبس الجسد الذي ووري التراب.

ومن هنا يرى الباحث أن أشعار المتنبي الحماسية زاداً نلجأ إليه في مواجهة الهجمة الشرسة على عروبتنا الخالدة، فتلهج بها الألسنة لتحوله إلى بطل يمثل الإرادة العربية والشموخ العربي في زمن ماتت فيه كل هذه السمائل العربية وباتت في طي النسيان.

وحقا كان قدر الرجل على قدر همته، ولولا همته العالية، لما كانت خطته للخلاص من سيطرة الأعاجم بمثابة البيانات الثورية النارية ذات الدوي الهائل كانت الثورة وكان التمرد في الذات وعلى الأشياء المحيطة به.

" فالشعر ليس خطبة أو رسالة أو سرداً لواقع، أو تسجيلاً لموقف شخصي أو اجتماعي ، أو سياسي، بقدر ما هو تصوير لحالة، لمعاناة تجربة يمر بها الشاعر، ومنها ينطلق إلى آفاق أوسع، ورؤى أمتع، ملوناً مشاعره ورؤاه، وأحلامه، برموز وصور خاصة بلغة شعرية خاصة، تجعلنا نشاركه أحلامه، وآلامه وآماله، وكأنها ملك لنا، كأنها زاد روحي لنا، به نتغذى وبإكسيه نتطهر"⁽¹⁾.

وخلاصة القول : إن الألفاظ التي تدل على العروبة وعناصرها تحتل مكان الصدارة عند الشاعر .

(¹) خليل شرف الدين أبو فراس الحمداني : دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1978م، ص135.

خاتمة

بعد هذا البحث الموجز في موضوع أثر اللغة العربية في شعر المتنبي ، نصل إلى العديد من النتائج ، التي يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية :

1. كشفت أشعار المتنبي في العرب عن تصويره الرائع للبطولة العربية التي جسدها سيف الدولة الحمداني التغلبي مع أعداء العرب الروم وكشفت عن عمق اتجاهه العربي ، وبدت أصالته واضحة في سيفياته التي تعد من روائع شعرنا العربي.
2. صدق الشاعر الفني في شعره ، أدى لتعميق الكلمة والمعنى وانسجامها.
3. أكثر من ذكر المعاني والألفاظ المرتبطة بالذات العربية ، وسجايها النفسية والاجتماعية، وقد جاءت قوية في غير تكلف لأنه صادق العاطفة.
4. برز المتنبي عن معاصريه من الشعراء في وصف حروب العرب مع أعدائهم، وفي تصوير أدوات الحرب لأسباب توافرت له دون غيره، لذا يعد شعره وثيقة تاريخية وسياسية مهمة في أدبنا العربي.
5. حاول المتنبي أن يضع حداً للانحياز الحضاري الذي كانت تتردى فيه أمته، فبات يستعلي الهمم ويحرك عزة الإباء، والرفض للواقع المهين كنفيس لما آلت إليه الحال العربية الإسلامية، ولكن يبدو أن هذا الانحياز كان أكبر من أن يوقفه شاعر فما توافرت لديه إمكانات متواضعة.
6. إن شعر المتنبي يعد أصدق تعبير عن هموم أبناء أمته في عصر اضطرت فيه الأحوال على كل صعيد، وهو أصدق من تغني بالعروبة وقيمها العربية ، حتى بات رمزاً لاتجاه العروبة في زمانه، وهو بذلك استحق صفة رائد شعر العروبة ، وهو أمير شعرائها بلا منازع .
7. إن كل عنصر من عناصر العمل الأدبي لدى المتنبي تشتم منه رائحة العروبة، جمعت في بوتقة واحدة يطل من رأسها سهم اسمه (العرب).

المصادر والمراجع

1. أدونيس ، مقدمة الشعر العربي، دار العودة ، بيروت، 1971م.
2. السيد محمد ديب، شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني، القاهرة، 1984م.
3. البخاري ، صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، رقم 2850.
4. جمال عبد الكريم أبو نجم ، ابن الآبار الأندلسي، دراسة نقدية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة أم درمان الإسلامية، 1996.
5. خليل شرف الدين، أبو فراس الحمداني ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1987م.
6. خليل شرف الدين ، المتنبي ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1987م.
7. درويش الجندي، الشعر في ظل سيف الدولة ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، 1959م.
8. فاطمة محمد السويدي ، سيفيات أبي الطيب المتنبي ، دراسة في البناء الفني، رسالة ماجستير ، كلية الآداب بجامعة القاهرة ، 1985م.
9. المتنبي، ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ط دار الكتاب العربي، بيروت ، 1986م.
10. محمد ثابت الفندي، وآخرون ، مترجم ، دار المعارف الإسلامية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1997.
11. محمد حمود ، المتنبي ، دار الفكر اللبناني، بيروت ، 1993.
12. محمد الخضر حسين، الخيال في الشعر العربي، تحقيق علي رضا التونسي، ط 2 ، 1972م.
13. محمد عزام قضية الالتزام في الشعر العربي من العصر الجاهلي وحتى عصر الانحطاط، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1989م.
14. منير سلطان، البديع في شعر المتنبي، ط منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1996م.